الخاتمة

وختاما أقول:

إن الحدود الفاصلة بين الأنا والآخر تحتاج إلى إعادة نظر منا جميعا.

وإن اختلاف الأشكال والأدوار بل والأهمية لا يعوق التوحد والتكامل بل يمدهما بأهم أسباب الوجود.

وإذا كانت الحكمة الإلهية قد اقتضت الاختلاف والتنوع بين البشر، فقد اقتضت أيضا التعارف بينهم؛ فلولا التعارف لغابت كثير من حكم الاختلاف؛ والتعارف ليس مجرد معرفة غير موظفة وإنما هو تعامل بالمعروف؛ والتعارف لفظة قرآنية أراها ترادف المصطلح العصري "التعايش"، أي "التشارك ـ القائم على التحاور، والحرية، والعدالة، والإحسان ـ إلى أقصى الحدود الفاصلة بين الأنا والآخر.

وإذا كان الاختلاف سنة كونية فإن الإلغاء من قبل أي طرف لا يغير شيئا من المسألة في طبيعتها الذاتية، أو من تأثيراتها الموضوعية، فالخصوصية تمثل بعدا في عمق الذات لا مجرد حالة طارئة على الهامش؛ إن القراءة الواعية للتاريخ لتؤكد على أن محاولات إلغاء الآخر، ونبذه، وممارسة العنف والقوة تجاهه، لا تنهي الاختلاف والمغايرة، وإنما تمدهما بكل أسباب وشروط الوجود والقوة، وتفضي على الصعيد العملي إلى المزيد من التشبث بالخصوصيات، وكل ما هو مميز للذات عن الآخر، ولا تحافظ ـ في الأغلب والأعم ـ على مصالح الذات ومكتسباتها، وإنما تدخل الجميع في دورة متواصلة من العنف لا تنتهي أو تتوقف

إلا بتدمير الذات والآخر.

إن وجود الآخر في خلق الله حقيقة واقعة، والتعايش معه في عصرنا هذا ليس خيارا من حق فئة أن تترفع عنه وعن مكاسبه وإنما هو أمر مصيري لا يمكن إغفال مخاطر غيابه المحدقة والتي تهدد الحياة بأسرها على ظهر كوكبنا الأرضي؛ وحاجتنا للآخر كحاجة الآخر لنا؛ وقد آن الأوان لنتخلى عن تلك العقيدة الساذجة القائلة بأن كل تعامل مع الآخر يكون فيه الآخر هو المستفيد الأوحد أو على الأقل الأكبر؛ ولنا المنة من ثمة عليه، بل والسلطان؛ وهو وهم زائف.

وإنه لمن الطبعي أن يكون لكل آخر توجهاته التي توجب عليه الرفض لبعض أفكار غيره، أو بعض أنواع التعامل معه، وهو أمر ينبغي تفهمه؛ وعليه ينبغي التفريق بين الرفض الجزئي لشكل من أشكال العلاقة مع الآخر، والمقاطعة الكاملة معه.

وإذا كان التعايش مع الآخر يحقق نفعا عظيما فلا ضير من تحمل بعض التبعات؛ وهنا تتجلى أهمية الموازنة بين ما هو سلبي وما هو إيجابي في العلاقة مع الآخر واختيار الكفة الراجحة.

وأقول:

إذا كان الاختلاف طبيعة بشرية، فالافتراق قرار إنساني، ولا شك أن الباحثين عن مسوِّغات الكراهية للآخر بتنوعاته المختلفة سيجدون مسوِّغات كثيرة وأحداثا متتالية تؤيِّد هذا التوجه في الافتراق؛ كما أن الباحثين عن وجوه الالتقاء سيجدون كذلك ضالتهم، وهنا يكمن التحدي الذي على الإنسان الذي يصبو للكمال أن يجابهه.